

القاضي عياض المالكي

محدّثًا و فقيهاً

إعداد الدكتور

رامي محمد جبرين سلّهب

مقدمة

الحمد لله الذي أعلى مراتب العلماء الأعلام، وزكى منهم العقول الراجحة والأحلام، ومنحهم مآثر تقصّر عن جمعها المحابر والأقلام، ومفاخر طارت كل مطار، وجعل معاليهم زاهرة زاهية، وأضواء فهمهم نامية سامية، وأنواء علومهم هامة هامية بواكب الأمطار، وأطلعهم على حقائق الأسرار، وهداهم وهدى بهم إلى ترتيب المدارك وتقريب المسالك، وجلى بمشارق الأنوار من معارفهم وآدابهم عمّن تمسك بأذيالهم وأهداهم غياهب الجهل الحوالم فأضاءت الأقطار.

وعرّفهم المقاصد الحسان، والوسائل المغتبطة والإلماع، بأصول الرواية والسّماع، والإعلام بحدود قواعد الإسلام، وأرشدهم إلى التنبيهات المستنبطة السامية الأخطار، حتى رفلوا من حُلل التحقيق السابعة في مطارف وبرود، ووردوا من مناهل التوفيق السائغة كلّ عذب برود، وتنسموا من حُجج الحقّ البالغة الروض المعطار، واجتتوا أزاهر أضحت مئية الطالب وبُغية الرائد، واجتلوا جواهر نُظمت منها الدرر والفرائد في أجياد الأسطار.

فإن أمّهم ناقص عديم ألفى لديهم الغنية والإكمال، أو قصدهم عليل سقيم وجد في أيديهم الشفاء فنال غاية الآمال، وظفر بمنتهى الأوطار.

والصلاة والسلام على سيّدنا ومولانا محمد أفضل العالمين بإطلاق، سراج المريرين وكنز العارفين الذي لا يُحشى معه إملاق، عمّدتنا العظمى، ووسيلتنا الكبرى عند الملك الخلاق^(١).
وبعد فهذه إطلاة موجزة على واحدة من أشهر الشخصيات العلمية في العلوم الشرعية في البلاد المغربية، أعني القاضي عياض المالكي رحمه الله تعالى، أتناول فيها شخصيته وعنايته بعلمي الحديث والفقّه، سائلاً المولى أن يمنّ على هذه الدراسة بالقبول، إنه أكرم مسؤل، والحمد لله رب العالمين.

(١) المقرئ، أزهار الرياض في أخبار عياض ١ / ١ .

المبحث الأول: شخصيّة القاضي عياض

القاضي عياض شخصيّة فذة، أكثر العلماء مدحها، وتاه المجيدون في وصفها، وحسبنا مما قيل فيها قولُ الملاحى رحمه الله: «كان القاضي عياض رحمه الله تعالى بحرَ علم، وهَضبة دين وحلم، أحكمَ قراءة كتاب الله تعالى بالسَّبْع، وبلغ من معرفته الطول والعرض. وبرّز في علم الحديث، وحملَ راية الرأي، ورأسَ في الأصول، وحفظ أسماء الرجال، وثقّب في علم النحو، وقيد اللّغة، وأشرفَ على مذاهب الفقهاء، وأنحاء العلماء، وأغراض الأدباء»^(١).

المطلب الأول: اسمه ونسبه وبلده

هو أبو الفضل: عياض بن موسى بن عياض بن عمرو بن موسى بن عياض بن محمد بن عبد الله بن موسى بن عياض اليحصبي الإمام العلامة، يُكنى أبا الفضل، سبتيّ الدار والميلاد، أندلسيّ الأصل^(٢). وعياض: بكسر العين المهملة وفتح الياء المثناة من تحت وبعد الألف ضاؤً معجمة. واليحصبي: بفتح الياء المثناة من تحت، وسكون الحاء المهملة، وضم الصاد المهملة وفتحها وكسرها، وبعدها ياء موحدة نسبةً إلى يحصب بن مالك، قبيلة من حمير. وسبته مدينة مشهورة^(٣). قال ولده محمد: كان أجدادنا في القديم بالأندلس، ثم انتقلوا إلى مدينة فاس، وكان لهم استقرار بالقيروان، لا أدري قبل حلولهم بالأندلس أو بعد ذلك، وانتقل عمرو بن موسى إلى سبته بعد سُكنى فاس^(٤).

(١) المقرئ، أزهار الرياض في أخبار عياض ٧/٣.

(٢) ابن فرحون، الديباح المذهب ٤٦/٢.

(٣) ابن فرحون، الديباح المذهب ٥١/٢.

(٤) ابن عياض، التعريف بالقاضي عياض ص ٢؛ ابن فرحون، الديباح المذهب ٤٦/٢.

المطلبُ الثاني: علومه الظاهرة والباطنة

كان القاضي أبو الفضل إمامَ وقته في الحديث وعلومه، عالماً بالتفسير وجميع علومه، فقيهاً أصولياً، عالماً بالنحو واللغة وكلام العرب وأيامهم وأنسابهم، بصيراً بالأحكام، عاقداً للشروط، حافظاً لمذهب مالك رحمه الله تعالى، شاعراً مجيداً ريتاناً من الأدب، خطيباً بليغاً، صبوراً حليماً، جميل العشرة، جواداً سمحاً، كثير الصدقة، دءوباً على العمل، صلباً في الحق^(١).

المطلبُ الثالث: شيوخه

رحل القاضي عياض رحمه الله إلى الأندلس - سنة سبع وخمسة - طالباً للعلم، فأخذ بقرطبة عن القاضي أبي عبد الله محمد بن علي بن محمد بن أبي الحسين سراج بن عبد الملك بن سراج، وعن أبي محمد بن عتاب، وغيرهم، وأجاز له أبو علي الغساني ما رواه.

وأخذ بالمشرق عن القاضي أبي علي: حسين بن محمد الصّديّ كثير، وعن غيره، وعني بلقاء الشيوخ والأخذ عنهم.

وأخذ عن أبي عبد الله المازري، كتب إليه يستجيزه، وأجاز له الشيخ أبو بكر الطرطوشي، ومن شيوخه القاضي أبو الوليد ابن رُشد. وقد اجتمع له من الشيوخ بين من سمع منه وبين من أجاز له مائة شيخ^(٢).

وذكر ولده محمد منهم^(٣): أحمد بن بقي، وأحمد بن محمد بن مكحول، وأبا الطاهر: أحمد بن محمد السّلفي، والحسن بن محمد بن سكرة، والقاضي أبا بكر بن العربي، والحسن بن علي بن طريف، وخلف بن إبراهيم بن النحاس، ومحمد بن أحمد بن الحاج القرطبي، وعبد الله بن محمد الحشني، وعبد الله بن محمد البطلّوسي، وعبد الرحمن بن بقي بن مخلد، وعبد الرحمن بن العجوز، وغيرهم ممن يطول ذكرهم.

(١) ابن فرحون، الديباح المذهب ٤٧/٢.

(٢) ابن فرحون، الديباح المذهب ٤٧/٢.

(٣) ابن عياض، التعريف بالقاضي عياض ص ٦، ص ١١٩ وما بعدها، ابن فرحون، الديباح المذهب ٤٧/٢-٤٨.

المطلبُ الرابع: مؤلفاته في غير الفقه والحديث

كانت حياة القاضي عياض موزعة بين القضاء والإقراء والتأليف، غير أن الذي أذاع شهرته، وخلد ذكره هو مصنفاته التي بوأته مكانة رفيعة بين كبار الأئمة في تاريخ الإسلام، وحسبك مؤلفاته التي تشهد على سعة العلم وإتقان الحفظ، وجودة الفكر، والتبحر في فنون مختلفة من العلم. هذا وللقاضي عياض مؤلفات عديدة في فنون مختلفة، في التاريخ، واللغة والأدب، نكتفي بذكر أشهر كتب القاضي عياض رحمه الله في التراجم والطبقات وهو كتاب:

ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك

وقد جاء الكتاب على النحو الآتي^(١):

- أ- بدأ القاضي عياض كتابه بذكر المدينة وفضائلها، وتقديم علمائها.
- ب- ثم تناول عمل أهل المدينة، والاستدلال في الأحكام الشرعية بإجماع أهلها.
- ت- ثم استدلل لترجيح مذهب الإمام مالك بن أنس على غيره من المذاهب بالعقل والنقل.
- ث- ثم تكلم في التعريف بالإمام مالك، واقتداء الأئمة به، وثناء العلماء عليه، ونشر فضائله، إلى سائر ما يحتاج إليه، من معرفة تاريخه ونسبه، ويتطلع إليه من مجاري أحواله في معاشرته وأدبه.
- ج- ثم تكلم حول عناية الناس بالموطأ، وأثبت أسماء مشاهير الرواة عن مالك، وحملة العلم عنه.
- ح- ثم ابتدأ بترجمة الفقهاء من أصحاب الإمام مالك خاصة، ثم أتباعهم طبقة طبقة، وأخلافهم أمة بعد أمة، إلى شيوخه الذين أدركهم، وأئمة زمنه الذين عاصروهم ممن شهرت إمامته، أو ظهرت تواليقه، ونقلت أقواله، وامثلت فتاويه وآراؤه.
- خ- راعى ترتيب التراجم على حسب تقدم الأزمان، وتعاقب الأوقات.
- د- تناول أسماء المترجمين، وأعراب عن ألقابهم وأنسابهم، وضبطها لئلا يقع فيها تصحيف.

(١) مقدمة ترتيب المدارك.

المطلب الخامس: المناصب التي شغلها

قال ابن بشكّوأل رحمه الله: «استقضي ببلده مدّة طويلة، حُمدت سيرته فيها، ثم نُقل عنها إلى قضاء غرناطة، فلم يطل أمدّه بها، وقدم علينا قرطبة في ربيع الآخر سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة»^(١).
وقال ابن فرحون رحمه الله: «وبعد عوده من الأندلس أجلسه أهل سبّته للمناظرة عليه في المدوّنة وهو ابن ثلاثين سنة أو ينيف عنها، ثم أُجلس للشورى، ثم ولي قضاء بلده مدّة طويلة حُمدت سيرته فيها»^(٢).

المطلب السادس: مولده ووفاته

كان مولد القاضي عياض بسبّته في شهر شعبان سنة ست وتسعين وأربعمائة، وتوفي بمراكش في شهر جمادى الأخيرة. وقيل: في شهر رمضان سنة أربع وأربعين وخمسمائة. وقيل: إنه مات مسمومًا، سمّه يهودي، ودفن رحمه الله تعالى بباب إيلان داخل المدينة^(٣).

(١) الصلّة ٢/٦٦٠.

(٢) الديباح المذهب ٢/٤٨.

(٣) ابن فرحون، الديباح المذهب ٢/٥١.

المبحث الثاني: القاضي عياض محدّثاً

يُعدُّ القاضي عياض في طليعة الرعيل الأوّل من علماء المغرب الذين طار ذِكْرُهُم كل مطار، على اختلاف الأجيال والأعصار، حتى قال قائلهم: لولا عياض ما ذُكر المغرب. وشاع ذلك في كُتُبهم، ودار على ألسنتهم في مجال التباهي والافتخار^(١).

المطلب الأوّل: إمامته في علم الحديث الشريف

كان القاضي عياض في علم الحديث الفدّ في الحفظ والرواية والدراية، العارفَ بطرقه، الحافظ لرجالها، البصير بحالهم؛ ولكي ينال هذه المكانة المرموقة كان سعيه الحثيث في سماع الحديث من رجاله المعروفين والرحلة إليه، حتى تحقّق له من علوّ الإسناد والضبط والإتقان ما لم يتحقّق إلا للجهابذة المحدثين. ثم عديدةٌ هي مظاهر الإمامة والإتقان والتوسّع والشهرة التي جعلت علمَ الحديث الشريف التخصّص الأوّل للقاضي عياض، وميدان جهده واجتهاده الأبرز، ومن هذه المظاهر^(٢):

- ١ - تلمذته على كبار المحدثين في عصره، واستجازته من لم يلتق منهم.
- ٢ - الارتحال في طلب الحديث، وتحمّله عناء التطواف في بلاد عديدة، طلباً للرواية والدراية.
- ٣ - تحمّله وسامعه لعدد وافر من المصنّفات الحديثية عن علماء عصره.
- ٤ - تصدّيه للتأليف في الحديث وعلومه، وإبداعه مؤلّفات حديثية على نحوٍ شهد له بالإمامة كبار العلماء من عصريه ومن بعدهم.

قال ابنه محمد رحمه الله: «وكان من أئمة وقته في الحديث وفقهه وغريبه ومُشكِّله ومختلفه، ومن صحيحه وسقيمه وعِلِّله، وحفظ رجاله ومُتونه، وجميع أنواع علومه»^(٣).

وقال الذهبي رحمه الله: «الإمام، العلامة، الحافظ الأوحد، شيخ الإسلام، القاضي، أبو الفضل»^(٤).

(١) عياض، الإمام، مقدّمة التحقيق ص ٣.

(٢) سُواط، منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض ص ١٤٨.

(٣) التعريف بالقاضي عياض ص ٤.

(٤) سير أعلام النبلاء ٢٠ / ٢١٢.

المطلبُ الثاني: القاضي عياض وعلم رواية الحديث

كان منهج عياض في الرواية يقوم على التحقيق والتدقيق وتوثيق المتن، وهو يعدُّ النقل والرواية الأصل في إثبات صحّة الحديث، وقد تشدّد في قضيّة النقد لمتن الحديث ولفظه، وتأويل لفظه أو روايته بالمعنى، وما يجزّه ذلك من أبواب الخلاف.

وطالبَ المحدث أن ينقل الحديث مثلما سمعه ورواه، وأنه إذا انتقد ما سمعه فإنه يجب عليه إيراد ما سمعه مع التنبيه على ما فيه؛ أي أنه يروي الحديث كما سمعه مع بيان ما يعنُّ له من تصويب فيه، دون قطع برأي يؤدّي إلى الجرأة على الحديث، ويفتح باباً للتهجّم قد يحمل صاحبه على التعبير والتصرف في الحديث بالرأي. قال ابن بشكّوأل رحمه الله: «وجمع من الحديث كثيرًا، وله عناية كبيرةً به، واهتمام بجمعه وتقييده، وهو من أهل التفنّن في العلم، والذكاء واليقظة والفهم»^(١).

وهذا الذي ذكرناه يظهر من خلال الكلام على بعض كتبه على النحو الآتي.

الفرعُ الأول: مشارق الأنوار على صحاح الآثار

وهو من أدلّ الكتب على سعة ثقافة عياض في علم الحديث وقدرته على الضبط والفهم، والتنبيه على مواطن الخطأ والوهم والزلل والتصحيح، وقد ضبط عياض في هذا الكتاب ما التبس أو أشكل من ألفاظ الحديث الذي ورد في الصحيحين وموطأ مالك، وشرح ما غمض في الكتب الثلاثة من ألفاظ، وحرّر ما وقع فيه الاختلاف، أو تصرّف فيه الرواة بالخطأ والتوهّم في السند والمتن، ثم رتب هذه الكلمات التي عرض لها على ترتيب حروف المعجم بناءً على الحرف الأول، بل والثاني والثالث^(٢).

قال ابن فرحون رحمه الله: «كتاب مشارق الأنوار في تفسير غريب حديث الموطأ والبخاري ومسلم، وضبط الألفاظ، والتنبيه على مواضع الأوهام والتصحيقات، وضبط أسماء الرجال، وهو كتابٌ لو كُتب بالذهب أو وُزن بالجواهر لكان قليلًا في حقّه، وفيه أنشد بعضهم:

مشارقُ أنوارٍ تبدّت بسبّته ... ومن عجبٍ كون المشارق بالغرب؟»^(٣).

(١) الصلّة ٢/ ٦٦٠.

(٢) عياض، الإلماع، مقدّمة التحقيق للسيد أحمد صقر ص ١٠-١٢.

(٣) ابن فرحون، الديباح المذهب ٢/ ٤٩.

وقال الحافظ السخاوي رحمه الله: «وأما مشارق الأنوار للقاضي عياض فإنه أجلُّ كتاب جمع بين ضبط الألفاظ، وقد نظمه الشمس محمد بن محمد بن عبد الكريم بن الموصل، أحد من أخذ عنه الناظم فأحسن ما شاء»^(١).

وقال المقرئ رحمه الله: «كان رحمه الله معتنياً بضبط الألفاظ النبوية على اختلاف طُرُقها، وكتابه المشارق أزكى شاهد على ذلك، ولقد كان بعض من لقيته من صلحاء عصرنا وعلمائه يقول: لا أحتاج في كتب الحديث إلا للمشارق، فإذا كان عندي، فلا أبالي بما فقدت منها، أو كلاماً هذا معناه»^(٢).

الفرع الثاني: إكمال المعلم بفوائد مسلم

يُعتبر الإكمال للقاضي عياض من كتب شروح الحديث المعروفة بالشرح الموضوعي، أو الشرح بالقول، بحيث يهتم المؤلف ببيان ما يحتاج إليه النص من بيان أو ضبط أو تعليق من ألفاظ السند أو المتن، مع ذكر ما يراه من الفوائد المختلفة المتعلقة بذلك اللفظ.

غير أن الإكمال للقاضي عياض يلتقي مع كتب شرح الحديث الموضوعية في بعض الجزئيات، فيتكلم آخر بعض الأحاديث على ما فيها من الفوائد والأحكام والآداب^(٣).

بل إنك «لا تكاد تطالع كتاباً من كتب أئمة الرواية والدراية لكل من أتى بعده إلا وتجد لعياض بكتابه الإكمال فيه ذكراً منشوراً، ورأية خفاقة، يارزون إليه فيما أشكل، ويعتمدون على ضبطه فيما أبهم.

بل كان أحياناً أصلاً من أصول كتب ذاعت بسببه واشتهرت كالمنهاج للنووي، وإكمال الإكمال وتكملته للآبي والسنوسي. كل واحد منهم لزم ظلّه، ووضع يده حيث كان يرفع قدمه.

ثم هذا ابن حجر في الفتح، والعيني في العمدة، يلزم كلُّ منهما ضبطه، وينسج في الكثير من مباحثه على نوله»^(٤).

(١) الغاية في شرح الهداية في علم الرواية ٢٨٤-٢٨٥. (حقيقه: عبد المنعم إبراهيم، القاهرة، مكتبة أولاد الشيخ، ٢٠٠١م).

(٢) المقرئ، أزهار الرياض في أخبار عياض ٢١/٣.

(٣) سُواط، منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض ص ١٦٩.

(٤) عياض، إكمال المعلم، مقدمة الطبعة ٩/١.

الفرع الثالث: بُغية الرائد لما تضمّنه حديث أم زرع من الفوائد

وهو شرح عظيم على حديث أم زرع الذي رواه عُروة بن الزبير عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، بدأ فيه القاضي عياض بشرح سنَدِ الحديث، ثم ساق نصّه واختلاف الرواة في بعض ألفاظه، ثم انتقل إلى الكلام على شيء من فقهه، ثم أخذ يشرح غريبه.

ثم أخذ القاضي يتناول كلام النسوة واحدة تلو الأخرى، يبين ما في كلامها من العربية والغريب، ثم الفوائد والفقه، وهكذا حتى انتقل إلى فصل في الفقه ذكّر فيه مسائل، ثم انتقل إلى ما في هذا الحديث من ضروب الفصاحة، وفنون البلاغة وأبواب البديع^(١).

قال الحافظ العسقلاني رحمه الله أثناء ذكر من شرح حديث أم زرع: «... ثم القاضي عياض، وهو أجمعها وأوسعها، وأخذ منه غالب الشراح بعده، وقد لخصت جميع ما ذكره»^(٢).

الفرع الرابع: الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم

أحد أشهر كتب الأئمة قديما وحديثا، شرقا وغربا، وأحد أكثر الكتب إقراء عند طائفة من أهل العلم. قال ابن فرحون رحمه الله: «أبدع فيه كلّ الإبداع، وسلّم له أكفأؤه كفايته فيه، ولم ينازعه أحد من الانفراد به، ولا أنكروا مزية السبق إليه، بل تشوّفوا للوقوف عليه، وأنصفوا في الاستفادة منه، وحمله الناس عنه، وطارت نُسخه شرقاً وغرباً»^(٣).

(١) عياض، بُغية الرائد، مقدمة التحقيق ص (د، هـ).

(٢) فتح الباري ٢٥٦/٩.

(٣) ابن فرحون، الديباح المذهب ٤٩/٢.

المطلب الثالث: القاضي عياض وعلم دراية الحديث

ولسوف نختصر الكلام على أشهر كتبه المتعلقة بعلم الضبط والدراية، على النحو الآتي:

كتاب الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع

وهو كتاب مختص بأصول الرواية (طرق التحمل وحجيتها)، وتقييد السماع (كألفاظ الأداء)، وما يتعلّق بذلك، وبعض آداب طالب الحديث وما شابهها، وليس في الكتاب اهتمام بالمصطلحات الحديثية لأقسام الحديث.

قال رحمه الله في خطبته: «فإن علم الكتاب والأثر أصل الشريعة الذي إليه انتمائها، وأساس علومها الذي عليه يرتفع تفرّيع فروعها وبنائها. وهو علم عذب المشرب، رفيع المطلب، متدفق ينبوع، متشعب الفصول والفروع.

فأول فصوله: معرفة أدب الطلب والأخذ والسماع. ثم معرفة علم ذلك ووجوهه وعمّن يؤخذ، ثم الإتيان والتقييد. ثم الحفظ والوعي. ثم التمييز والنقد بمعرفة صحيحه وسقيمه، وحسنه ومقبوله ومتروكه وموضوعه، واختلاف روايته وعِلّله، وميز مسنده من مرسله، وموقفه من موصوله. ثم معرفة طبقات رجاله من الثقة والحفظ والعدالة، والجرح والضعف والجهالة، والتقدم والتأخر. ثم ميز زيادات الحفاظ وغيرهم فيه، وفصل المدرج أثناءه من أقوال ناقله.

ثم معرفة غريب متونه، وتفسير ألفاظه. ثم معرفة ناسخه من منسوخه، ومفسره من مجمله، ومتعارضه ومشكله. ثم التفقه فيه واستخراج الحكم والأحكام من نصوصه ومعانيه، وجلاء مشكل ألفاظه على أحسن تأويلها، ووفق مختلفها على الوجوه المفصلة وتنزيلها. ثم النشر وآدابه، وصحة المقصد في ذلك للدين واحتسابه. وكل فصل من هذه الفصول علم قائم بنفسه، وفرع باسق على أصل علم الأثر وأسه»^(١).

(١) الإلماع ص ٤-٥.

المبحث الثالث: القاضي عياض فقيهاً

يُعتبر القاضي عياض أحد مشاهير فقهاء المالكية، وهو ما نُبرزه من خلال الآتي:

المطلب الأول: مكانة أقواله في المذهب المالكي

لقد زخرت كتب الفقه المالكي بمئات بل ألوف النُقول عن القاضي عياض رحمه الله، بحيث لا يكاد يخلو منها كتاب، وهنا نماذج قليلة جداً تُبرز مكانة هذا الإمام، سيّما في مجال الترجيح والتشهير وضبط معتمد المذهب.

قال الحطّاب رحمه الله تعالى: (تنبيهات: الأول: ما فسرنا به كلام المصنف من أن الرد على الإمام وعلى اليسار إن كان فيه أحد سنّة واحدة، هو الذي ذكره القاضي عياض في قواعدها وعدّها الشيبيني في شرح الرسالة وفي قواعده سُتّيناً وعدّها ابن جماعة في فرض العين فضيلتين. وعدّ ابن يونس وابن رشد في المقدمات والقرافي الرّدّ على الإمام من السنن، ولم يذكروا معه الرد على اليسار، ولا نبهوا على حكمه. وقال القّبّاب في شرح قواعد القاضي عياض بعد أن ذكر كلامه: عد ابن يونس وابن رشد الرد على الإمام من السنن، ولم يعدوا فيها الرد على من على اليسار)^(١).

وقال العَدَوِيُّ رحمه الله تعالى: (أي أن اللخمي فهم من المدونة أن المراد بالعمرة السواتان خاصّة، وضعف ذلك الفهم القاضي عياض في التنبيهات قائلاً: ليس في الكتاب ما يدلّ على ذلك، بل لو قيل: فيه ما يدل على قول ابن حبيب أي الذي هو الستر من السرة للركبة لكان له وجه؛ لأنه قال بأثره: ويفضي بيديه إلى فرجه إن احتاج، ولو كانت العمرة نفس الفرّج لما ذكر الفرّج بلفظ آخر. اهـ. ولأجل ذلك مرّ العلامة خليل على كلام ابن حبيب، فهو المعتمد)^(٢).

وقال أيضاً رحمه الله تعالى: (قال القاضي عياض: ذكر الله ضربان: ذكر بالقلب وذكر باللسان. وذكر القلب نوعان: أحدهما وهو أرفع الأذكار وأجلّها الفكر في عظمة الله وجلاله وجبروته وآياته في سيّاته

(١) مواهب الجليل شرح مختصر خليل ٢/٢٢٦.

(٢) حاشيته على كفاية الطالب الربّاني للمنوفي ٢/٢٢٣.

وأرضه. والثاني: ذكره بالقلب عند الأمر والنهي، فيمثل ما أمر به ويتنهي عما نهى عنه، ويقف عما أشكل عليه. وأما ذكر اللسان مجرداً فهو أضعف الأذكار، ولكن فيه فضل عظيم كما جاءت به الأحاديث^(١).
وقال الدسوقي رحمه الله تعالى في مسألة تلقي السَّلَع: (الأول منها شهره المازري، والثاني شهره القاضي عياض)^(٢).

المطلب الثاني: مصنّفاته الفقهيّة وأثرها في المذهب المالكي

الفرع الأول: كتبه المفقودة أو التي لم تتمّ

للإمام القاضي عياض عدد من الكتب الفقهية التي لم تصلنا، أو لم يتمّها، وهي من خلال عناوينها أو ما وصلنا منها تدلّ على سعة دائرته في الفقه، وإحاطته بعلومه، أصوله وفروعه وتطبيقاته، منها^(٣).

١. أجوبة القرطبيين^(٤): وهي قضايا ونوازل قضى وأجاب عليها القاضي عياض، كانت في بطائق، فجمعها ولده محمد وزاد عليها، وأخرجها في كتاب بعنوان: (مذاهب الحكماء في نوازل الأحكام).

٢. الأجوبة المحبّرة عن الأسئلة المتخيرة: وهذا الكتاب لم يتمّه القاضي رحمه الله.

٣. مسألة الأهل المشترط بينهم التزاور.

٤. المقاصد الحسان فيما يلزم الإنسان.

٥. نظم البرهان على صحّة جزم الأذان.

(١) حاشيته على كفاية الطالب الربّاني للمنفوني ٤/ ٤٠٤.

(٢) حاشيته على الشرح الكبير للدردير على مختصر سيدي خليل ٣/ ٧٠.

(٣) ابن عياض، التعريف بالقاضي عياض ص ١١٦؛ شواط، منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض ص ١٦٠؛ التراي، القاضي عياض وجهوده في علمي الحديث رواية ودراية ص ١٥٢.

(٤) ابن عياض، التعريف بالقاضي عياض ص ١١٨؛ علي، اصطلاح المذهب عند المالكية ص ٣٣٦.

الفرع الثاني: التنبهات المستنبطة على الكتب المدونة والمختلطة

درس القاضي عياض على شيوخه بـ(سبته) المدونة لسحنون، وهو مؤلف يدور عليه الفقه المالكي، ويُعدُّ مرجعهُ الأول بلا منازع، وقد كُتبت عليه الشروح والمختصرات والحواشي، غير أنَّ المدونة لم تكن حسنة التبويب؛ حيث تتداخل فيها المسائل المختلفة في الباب الواحد، وتعاني من عدم إحكام وضع الآثار مع المسائل الفقهية.

وقد كان للقاضي عياض اهتمام بالغ بالمدونة، ومظاهر هذا الاهتمام:

ما قال القاضي عياض رحمه الله في ترجمة شيخه القاضي أبي عبد الله محمد بن عيسى بن حسين التميمي (ت ٥٠٥هـ)، أجل شيوخ سبته، ومقدم فقهاها الذي أخذ عنه مما أخذ: الكتب المدونة: «ناظرت في جميعها عليه مناظرات عدة، وقرأت عليه الكثير منها روايةً وضبطاً، وأجازني باقيها»^(١).

وقال القاضي عياض رحمه الله في ترجمة شيخه القاضي أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الأموي (ت ٥١٧هـ): «ناظرت عليه مدة طويلة في المدونة، وأخذت عنه فوائد من العلم كثيرة»^(٢).

وقد لاحظ القاضي عياض عند دراسته المدونة على أكثر من شيخ ما تحتاجه من العناية؛ فنهض إلى عمل عظيم، فحرر رواياتها، وسمى رواياتها، وشرح غامضها، وضبط ألفاظها، وذلك في كتابه: (التنبهات المستنبطة على الكتب المدونة والمختلطة)، ولا شك أن قيام القاضي عياض بمثل هذا العمل يُعدُّ خطوة مهمة في سبيل ضبط المذهب المالكي وازدهاره.

ولا زال كتاب التنبهات «من كتب المالكية المعتمدة إلى الآن، وعليه المعول في حل ألفاظ المدونة، وتحليل رواياتها، وتسمية رواياتها. وسعة رواية عياض هي التي أحلتها المحل الأول في الفقه المالكي، وجعلت أبناء عصره يعولون عليه في حل ألفاظ مدونة الإمام سحنون»^(٣).

قال المقرئ رحمه الله: «وقد كان للقدماء رضي الله عنهم في تدريس المدونة اصطلاحان: اصطلاح عراقي، واصطلاح قروي. فأهل العراق جعلوا في مصطلحهم مسائل المدونة كالأساس، وبنوا عليها

(١) الغنية ص ٤١.

(٢) الغنية ص ٥٨.

(٣) علي، اصطلاح المذهب عند المالكية ص ٣٦١.

فصول المذهب بالأدلة والقياس، ولم يعرّجوا على الكتاب بتصحيح الروايات، ومناقشة الألفاظ، ودأبهم القصد إلى أفراد المسائل، وتحرير الدلائل، على رسم الجدليين، وأهل النظر من الأصوليين. وأما الاصطلاح القروي فهو البحث على ألفاظ الكتاب، وتحقيق ما احتوت عليه بواطن الأبواب، وتصحيح الروايات، وبيان وجوه الاحتمالات، والتنبيه على ما في الكلام من اضطراب الجواب واختلاف المقالات، مع ما انضاف إلى ذلك من تتبع الآثار، وترتيب أساليب الأخبار، وضبط الحروف على حسب ما وقع من السماع، وافق ذلك عوامل الإعراب أو خالفها.

فهذه كانت سيرة القوم رضوان الله عليهم، إلى أن عمّ التكاثر، وصار رسم العلم كالمحل^(١). وقد جمع القاضي عياض رحمه الله في كتابه التنبيهات، المتين الوضع، البديع المنزع «بين الطريقتين: العراقية التي تعتمد على القياس، والتأصيل، وتحقيق المسائل، وتقرير الدلائل، والطريقة القروية التي تعتمد على الضبط والتصحيح، وتحليل المسائل والمباحث، واختلاف التخارج والمحال^(٢)». حتى لم يعد «كتاب متأخر عن عصر القاضي عياض إلا والتنبيهات مصدر رئيس من مصادره، وما من كتاب متقدم عليه إلا وفي التنبيهات ما يحل كثيرًا من مشكله^(٣)».

خاتمة

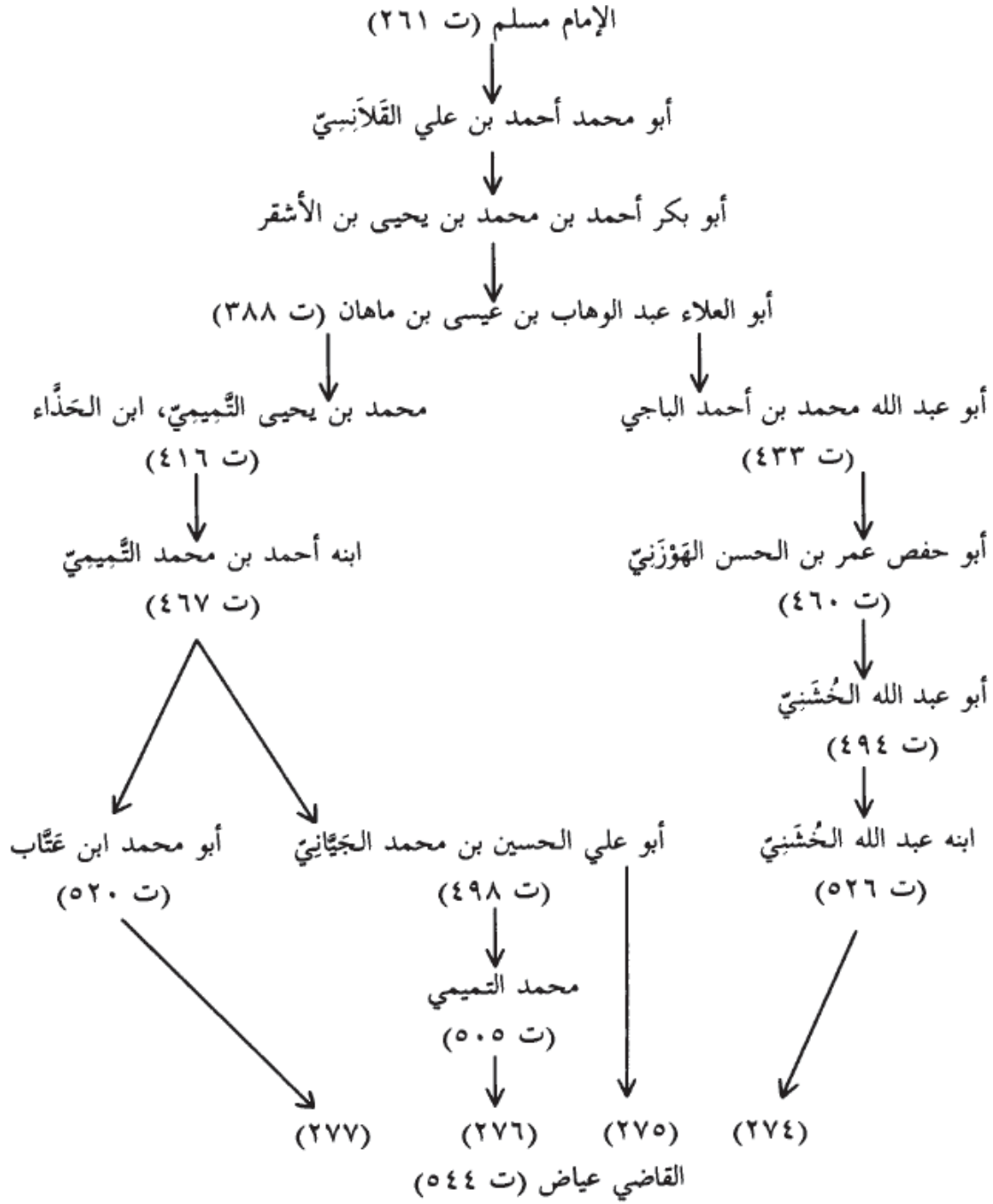
حاولت هذه الدراسة المختصرة بيان شيء من شخصية الإمام القاضي عياض المالكي رحمه الله، ظهر من خلالها شخصيته العلمية الواسعة الدائرة، واهتمت بشكل خاص بدور القاضي عياض وجهده في علم الحديث الشريف وعلم الفقه، فذكرت طرفا من كتبه، وشيئا من أثره في العلماء من بعده. وإن الدراسة لتكبر شأن هذا الإمام العَلَم، وتدعو للأخذ عنه منهجه الرصين الدقيق المعظم للكتاب والسنة بفهم علماء الأمة، ما جعل هذه الأمة رائدة سائدة على غيرها، نشر الله على أيدينا خيرها وبرّها. والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على وسيلتنا إلى ربّ الخلق أجمعين.

(١) المقرئ، أزهار الرياض في أخبار عياض ٢٢ / ٣.

(٢) علي، اصطلاح المذهب عند المالكية ص ٣٣٤.

(٣) عياض، التنبيهات المستنبطة، مقدمة التحقيق ٧ / ١.

ملحق (١)



مراجع البحث

- * ابن بشكّوَال: أبو القاسم خلف بن عبد الملك بن مسعود المالكي (٥٧٨-٤٩٤هـ).
- 📖 الصَّلَة، حَقَّقَه: إبراهيم الأبياري، القاهرة، دار الكتاب المصري، ط ١، ١٤١٠هـ/١٩٩٨م.
- * التراي: البشير علي حمد التراي (معاصر).
- 📖 القاضي عياض وجهوده في علمي الحديث رواية ودراية، بيروت، دار ابن حزم، ط ١، ١٤١٨هـ/١٩٩٧م.
- * ابن حَجَر العسقلاني: أبو الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٨٥٢-٧٧٣هـ).
- 📖 فتح الباري شرح صحيح البخاري، بيروت، دار المعرفة، ١٣٧٩هـ.
- * الحطَّاب: أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الرحمن المغربي المالكي (ت ٩٥٤هـ).
- 📖 مواهب الجليل، الرياض، دار عالم الكتب، ١٤٢٣هـ/٢٠٠٣م، ٨ مج، (معه التاج والإكليل للمواق).
- * الدسوقي: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي (ت ١٢٣٠هـ).
- 📖 حاشية على الشرح الكبير للدردير على مختصر خليل، القاهرة، دار إحياء الكتب العربية.
- * الذهبي: أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان الشافعي (ت ٧٤٨هـ).
- 📖 سِير أعلام النبلاء، بيروت، مؤسسة الرسالة، ط ١، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.
- * سُواط: الحسين بن محمد سُواط (معاصر).
- 📖 منهجية فقه الحديث عند القاضي عياض في إكمال المعلم، الحُبْر، دار ابن عفَّان، ط ١، ١٤١٤هـ/١٩٩٣م.
- * العَدَوِي: علي بن أحمد الصَّعِيدِي العَدَوِي المالكي (١١٨٩-١١١٢هـ).
- 📖 حاشية على كفاية الطالب الربَّاني، حَقَّقَه: أحمد إمام، القاهرة، مكتبة الخانجي، ط ١، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.
- * علي: محمد إبراهيم علي (معاصر).
- 📖 اصطلاح المذهب عند المالكية، دبي، دار البحوث، ط ١، ١٤٢١هـ/٢٠٠٠م.
- * عياض: عياض بن موسى بن عياض اليحصبي المالكي (ت ٥٤٤هـ).
- 📖 الإعلام بحدود وقواعد الإسلام، حَقَّقَه: محمد صديق المنشاوي، القاهرة، دار الفضيلة.
- 📖 إكمال المعلم بفوائد مسلم، حَقَّقَه: يحيى إسماعيل، المنصورة، دار الوفاء، ط ١، ١٤١٩هـ/١٩٩٨م.

الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السماع، حَقَّقَه: السيّد أحمد صقر، القاهرة، مكتبة التراث، ط ١، ١٣٧٩هـ/١٩٧٩م.

بُغْيَةُ الرَّائِدِ لَمَّا تَضَمَّنَتْ حَدِيثَ أُمِّ زَرْعٍ مِنْ الْفَوَائِدِ، حَقَّقَه: صلاح الإدلبي وآخران، المغرب، وزارة الأوقاف، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، حَقَّقَه: محمد الطنجي، المغرب، وزارة الأوقاف، ط ٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

التنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة المختلطة، حَقَّقَه: أحمد نجيب، نواكشوط، مركز نجيوييه، ط ١، ١٤٣٣هـ/٢٠١٢م.

الغنية (فهرست شیوخه)، حَقَّقَه: ماهر جرّار، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

* ابن عياض: محمد بن عياض بن موسى اليحصبي المالكي (ت ٥٤٤هـ).

التعريف بالقاضي عياض، حَقَّقَه: محمد بن شريفة، المغرب، وزارة الأوقاف، ط ٢، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

* ابن فرحون: برهان الدين إبراهيم بن علي بن فرحون المالكي (ت ٧٩٩هـ).

الدِّيْبَاجُ الْمَذْهَبُ فِي مَعْرِفَةِ أَعْيَانِ عُلَمَاءِ الْمَذْهَبِ، حَقَّقَه: محمد الأحمدى أبو النور، القاهرة، دار التراث.

* المقرئ: أحمد بن محمد بن أحمد المقرئ التلمساني المالكي (١٠٤١-٩٨٦هـ).

أزهار الرياض في أخبار عياض، حَقَّقَه: السقا والأبياري وشلبي، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف، ط ١، ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م.

الموضوعات

٢	مقدّمة
٣	المبحث الأول: شخصيّة القاضي عياض
٣	المطلب الأول: اسمه ونسبه وبلده
٤	المطلب الثاني: علومه الظاهرة والباطنة
٤	المطلب الثالث: شيوخه
٥	المطلب الرابع: مؤلفاته في غير الفقه والحديث
٦	المطلب الخامس: المناصب التي شغلها
٦	المطلب السادس: مولده ووفاته
٧	المبحث الثاني: القاضي عياض محدثنا
٧	المطلب الأول: إمامته في علم الحديث الشريف
٨	المطلب الثاني: القاضي عياض وعلم رواية الحديث
٨	الفرع الأول: مشارق الأنوار على صحاح الآثار
٩	الفرع الثاني: إكمال المعلم بفوائد مسلم
١٠	الفرع الثالث: بغيّة الرائد لما تضمّنه حديث أم زرع من الفوائد
١٠	الفرع الرابع: الشفا بتعريف حقوق المصطفى صلى الله عليه وسلم
١١	المطلب الثالث: القاضي عياض وعلم دراية الحديث
١١	كتاب الإلماع إلى معرفة أصول الرواية وتقييد السّماع
١٢	المبحث الثالث: القاضي عياض فقيهاً
١٢	المطلب الأول: مكانة أقواله في المذهب المالكي
١٣	المطلب الثاني: مصنّفاته الفقهيّة وأثرها في المذهب المالكي
١٣	الفرع الأول: كتبه المفقودة أو التي لم تتمّ
١٤	الفرع الثاني: التنبيهات المستنبطة على الكُتب المدوّنة والمختلطة
١٥	خاتمة
١٦	ملحق (١)
١٧	مراجع البحث
١٩	الموضوعات